حركات الإصلاح الإسلامية

٢ ـ أزمة إسلامية

للدكتور على حسن عبد القادر

دكتور فى الفلسفة والعلوم الاجتماعية من جامعة برلين
ومدرس بكلية الشريعة

هكذا نرى أن التشريع الإسلامى هو محور الدائرة التى تدور حولها حركات الإصلاح والتجديد فى الإسلام ، والباب الذى ينفذ منه المصلحون لتجديد الحياة الإسلامية تجديداً عملياً، وأن مسألة كون الإسلام قابلاً للاصلاح والتجديد والرجوع به شاباً قوياً إنما تقوم على مسألة أخرى : وهى هل من الممكن التخلص من أشكال قديمة جامدة فى الفقه الإسلامى ؟

وإذا ما أردنا أن نحدد البحث تحديداً أدق لنتعرف العامل الأول الذى أملى على المصلحين إصلاحهم وجرهم إلى التفكير فى ذلك فلا يسعنا فى حدود المؤرخ الدينى أن نفكر أن ذلك يرجع إلى الأصل المعروف « الإجماع » ذلك الأصل الذى صبغ الفقه الإسلامى بما لم يصبغه به غيره ، ودعم به أهل السنة وجهات نظرهم تدعيما لم يقبل النقض . وهو فى حقيقة الأمر المفتاح الذى نفهم به تطورات الإسلام فى علاقاته المختلفة فى العقائد والتشريع والسياسة، فما تقبلته الأمة حقاً وصدقاً فهو حق وصدق، ومالا فلا؛ ويكون صحيحاً فقط فى الشكل الذى يعطيه له الإجماع ، حتى تفسير القرآن الكريم والسنة يكون صحيحاً منه ما يقبله إجماع الأمة ، والمقائد ـ تلك التى خضعت لكفاح قاس فى أول الأمر ـ أصبح موافقاً للدين منها ما ختم عليه الإجماع بخاتمه النهائى . وهؤلاء الرجال وهذه الكتب تعتبر إمامتها إذا اعتبر هذه الإمامة إجماع المسلمين . وهكذا نرى أن الإجماع قد لعب دوراً هاماً فى الإسلام بما لم يقم به مبدأ مثله . ومن المعروف أن هذا الإجماع لم يأت نتيجة اجتماع منظم ، وإنما كانت دائرته أول الأمر الإحساس الجمعى والرأى العام وصوت الأمة

وقد حاول العلماء حدّه زماناً ومكاناً أو ردّه إلى إجماع الصحابة أو علماء السلف من أهل المدينة أو الحرمين؛ ولكن هذه المحاولات شىء ومظاهره المختلفة التى رأيت شىء آخر . وأهم من هذا هو أن الإجماع الذى حقق فى الماضى قوة التعادل ومطابقة العصر ليس بعيداً أن يكون نواة قوة لمكافحة الجمود والنفوذ الشخصى إذا ما استغل استغلالاً مرضياً وهو ما نتركه للمستقبل .

وقد يظهر غريباً إذا قلنا إن عوامل التجديد قد أظهرتها وحددتها طريقة أهل السنة نفسها ، ذلك أن طريقة أصول الفقه إن تكن لا خلاف فيها فى أوساط أهل السنة ، فقد وجد من العلماء المفكرين من لم يقبل البقاء بعيداً عن دائرة الاجتهاد . وظهر له أن التقليد والتمسك بمذهب بعينه أمر لا يحتمل ، وعند ذلك حدد هؤلاء العلماء من أول الأمر ـ شعروا أم لم يشعروا ـ دائرة هذا الأصل الخطير ـ أعنى أصل الإجماع ـ وضيقوا من نتائجه . فالإمام الغزالى نادى بالاجتهاد وكثير ممن جاء بعده فعلوا ذلك أيضاً مثل ابن تيمية والسيوطى[1] . وقد استند المصلحون من ناحية أخرى فى مناهضتهم للإجماع إلى أن تحديده بقى وقتاً طويلاً مجالاً للأخذ والرد حتى استطاع آخر الأمر أن يأخذ هذا المحيط الواسع الذى انتهى إليه[2]

وقد جاهد الحنابلة من بين المذاهب الأربعة جهاداً كبيراً فى سبيل الاجتهاد لأجل مصلحة السنة نفسها التى عرفوا بأحيائها. فابن تيمية وتلميذه ابن القيم استعملا هذا السلاح ضد البدع الكثيرة المنتشرة[3] . وقامت على هديهم وفى روحهم حركة

(١) S. Goldziher, Die Richtungen der islamischen Koranauslegung, p. 329, Anm. 3.

(٢) قارن على سبيل المثال : Khuda Bukhsh, Essays I indian and Islamic, S. 290.

(٣) قارن على الأخص مقال محمد بن شنب فى دائرة المعارف الاسلامية جزء ٢ ص ٤٤١ وما يليها

ولما كان هو على غاية من التقوى ولم يسىء استعمال قوته قط، فإنه بالغ بحول الله هذا العمر لا محالة. أما هو فعاش فى هذا الأمل اللطيف نحو تسعين سنة . ومن أخبار جدّه ، وهو معتقد بما يقول ويفعل ما حدث له مرة ، وهو يتنزه على شاطئ البحر مع صاحبه الشيخ طاهر ، وقد لحق بهما أحد الطلبة ، وكان هذا لا يخلو من جذب على ما يظهر . وبعد مضى أربع ساعات على اجتماعه إليهما التفت إلى الدكتور وقال له : يا سيدى الدكتور أرجو ألا يكون فى حضورى ما ينغص عليك خلوتك إلى الشيخ. فأجابه الدكتور. بدون توقف : يا بنى نحن لم نحس أنك معنا ، وإنا فى شاغل عنك نحن الآن ندبر أمر ثلاثمائة مليون من المسلمين ، وهكذا كان وما شاء الله كان

محمد كرد على

الوهابية بجزيرة العرب أثناء القرن الثامن عشر الذين حاربوا البدع وأزالوها من البلاد المقدسة ، وتعاليم محمد بن عبد الوهاب مؤسس هذه الحركة متفقة تماماً مع تعاليم ابن تيمية[1] ، فقد كان يدعو إلى التمسك بالدين في الشكل الذي كان عليه في حياة النبي وصحابته ، وكان غرضه الرجوع إلى الإسلام، في الصدر الأول، وذلك إنما يتم بالرجوع إلى الكتاب والسنة وحدها . وإذا ما اتهمه خصومه بأنه مخالف للاجماع حدد سلطان الإجماع وحصره مخالفاً في ذلك جمهور أهل السنة . ولا يخفى أن هذه البدع التي حاربها بشدة وعدها كفراً كانت في الواقع مقبولة بإجماع المسلمين

وقد بلغت درجة الكفاح أشدها عند ما اتهم ابن تيمية والوهابيون بأنهم خارجون عن الدين وعلى جماعة المسلمين وتعاليم أهل السنة السائدة[2]، ولكن الوهابيين وقفوا في مكانهم ثابتين متمسكين بمذهب الإمام أحمد . وكما أن مرّ الأيام قد خفف من الحكم على ابن تيمية ، فكذلك أخذ كثير من المسلمين بعد زوال الخطر الوهابي يغيرون من رأيهم في هؤلاء العرب المهاجين

ولم تنته آثار حركة الوهابيين بسقوطهم السياسي وهدم عاصمتهم الرياض سنة ١٨١٨ ، وذلك أن تعاليمهم وآراءهم بقيت منتشرة في الجزيرة العربية . وفي سنة ١٩٢٤ ضموا إليهم بلاد العرب وأصبح قائدهم الملك عبد العزيز بن سعود الزعيم المعترف به في البلاد المقدسة

وإذا كان رجوعهم لم يقابل بشدة كما قوبل به منذ مائة عام ، وإذا كانوا لم يرفضوا بقوة إزاء تيارات التجديد الحديث ، فإنهم مع ذلك لم يتركوا تعاليمهم ، وأصبح القول بخروجهم عن الدين غير موجود الآن عند جمهور أهل السنة

وأهم من هذا كله في هذه الكلمة الإجمالية ، هو أن هذه الحركة الوهابية أخذت تدب في أثناء القرن التاسع عشر إلى بلاد إسلامية أخرى ، وعلى الأخص بلاد الهند ومصر ، ومن بين كل هذا قد أحدثت دعوتهم بالرجوع إلى الإسلام الأصلي الخالص وترك البدع التي حدثت بعد ذلك ، والبعد عن تعقيدات الفقهاء وعما حاكتهم ، قد أحدثت هذه الدعوة تذكيراً المسلمين ومفكريهم الذين لم يريدوا معاداة أي حركة إصلاحية في الإسلام

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن الحركة الوهابية كان لها أهمية كبيرة بعيدة الأثر في هذه الحركات الإصلاحية الإسلامية التي ظهرت أخيراً ، وإن يكن الاتصال بينها وبين هذه الحركات غير مباشر وغير واضح كل الوضوح . ومن هنا يجب أن نحسب لها حسابها في الكلام على هذه الحركات التي سنلم بها بعد إن شاء الله

علي حسن عبد القادر

(١) راجع في هذا مجلة المستشرقين الألمانية جزء ٢٨ (١٩٢٤/٢٥) صفحة ١٧٩ وما يليها

(٢) Goldziher, Vorlesungen, S. 294; 2. A. S. 277

صدر حديثاً كتاب :

من الأدب القرني

قصائد وأقاصيص

لأمراء الشعر والنثر

للأمير خالد الفرحان وشاعر البادية وحي دمشق وسواهم

بقلم

احمد حسن الزيات

يقع في زهاء ٣٠٠ صفحة وثمنه ١٥ قرشا ، ويطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكاتب الشهيرة .